الانسان في هذا العصر وضعفي دماغ ارقى انواع القرود وعظامهُ غليظة وعضلات جدغيهِ تمتد نحو قمة قحفهِ اكثر مما تمتد في كل القحوف التي وجدت حتى الآن . وفكهُ الاسفل يشبه الفك الذي وجد في هيدلبرج الاَّ انهُ اقرب منهُ الى فك القرد واقل غلظاً وتمدداً في مكان الذقن حتى يكاد يكون مستديراً . فهو شبيه بفك الشمبانزي من انواع القرود . واكتشفت اكتشافات اخرى تدل على ان الانسان كان منتشراً في اوربا وجزيرة جاوى وما بينهما من البلدان منذ نحو مئة الف سنة الى مليون سنة وانهُ كان على انواع مختلفة في ذلك العهد

الاخلاق[1]

ايها السادة والسيدات

لم يخلق الانسان اميراً ولا كاهناً ولا سلطاناً ولا رئيساً ولا مرؤوساً . وما السيادة الاَّ للعقل . وما التفاضل الاَّ بالمآثر والمبرات . فلا ينبغي ان يُرفع امرؤ على آخر ويُفضل بغير عقلهِ ونفسهِ وادبهِ واخلاقهِ . كلٌّ منا خُص بلقب من خالقهِ اشرف من القاب الملوك والسلاطين . ألا هو لقب « انسان » . ولكل منا حقوق طبيعية متساوية ملازمة غير متعدية لا يستحق ان يُدعى بشراً من يتنام عنها او يُغضي على امتهانها . ولكل منا حقوق سياسية اجتماعية تنشأ في حياتنا المدنية ومنها عارٌ علينا ان نسكت عمن يهتضمها من اولي الرئاسة والامارة

« وأرى ملوكاً لا تحوط رعيةً فعلى مَ تؤخذ جزية ومكوسُ ».

ولكل منا حقوق ادبية نفسية ليس فوقها غير سنة الله السائدة في الاكوان لا تخضع فيها لسواها — لسنة الله التي تنير في الانسان الضمير كما تنير في السماء الكواكب والنجوم — لسنة الله التي تقرن نور الشمس بنور البراعة وقوس قزح بالوان الطاووس وزئير الاسد بصوت النبي وتغريد البلابل بقوافي الشعراء . فحقوقنا الادبية النفسية التي لا تخضع فيها لغير سنة الله انما هي برهاننا على وجود الله . ولا حق اثبت منها واعلى . قد أُلقي في السجن فاحرم حقوقي المدنية . وقد احرم قوتي وأُصاب العذاب فتمتهن حقوقي الطبيعية . ولكن السجن والجوع والعذاب لا تذهب بذرة من حقوقي الادبية الروحية . انك اذا استطعت حبس

(١) خطبة القيت في دار الكلية الاميركية في بيروت في ٨ مارس (اذار) سنة ١٩١٣

نور الشمس او ايقاف ريح السموم او تقييد امواج البحار لتستطيع سلب حق من حقوق اخيك النفسية . ولكنها قد تُخل فيه فتضعف فتموت . وكذلك حقوقهُ المادية كلها. ولا حاجة لان اضرب لكم الامثال ايضاحاً . لحرية الحركة مثلاً من حقوقي الطبيعية وحرية التهمة من حقوقي السياسية . وحرية الفكر والضمير من حقوقي النفسية . وسياج هاته الحقوق كلها الاخلاق بل الاخلاق الطيبة السليمة المجيدة السامية . فاذا أُفسدت الاخلاق في امة نامت تلك الامة عن حقوقها . واذا نامت عن حقوقها استبد حاكمها . واذا استبد حاكمها ساء حالها . واذا ساء حالها خربت ديارها . واذا خربت ديارها حق لامة يافطة ناشطة راقية ان تتولاها فتعمرها

ملك اساسهُ الجهل والسفه وقوامهُ الاستبداد والجور ومظاهرهُ الفقر والبؤس والقذارة لهُ يوم من الدهر فيزول . امة لا تسمع فيها غير التأوه والانين والصراخ والشكوى لها يوم من الشقاء فيزول فيبعث الله من يحل قيودها . ويمسح دمعها . وينعش بالعدل نفسها . وبالعلم يجدد قواها . كانت ايامٌ تباد فيها الامم . يبيدها الجهل او الوباء او المجاعة او الظلم او الحرب . واما اليوم فالامم تجدد شبابها لان المعارف والعلوم غير منحصرة في فئة صغيرة من الناس . والاوبئة التي تساعد في انشائها الاضاليل يكاد العلم يستأصلها . وعاطفة سيئة الامم الراقية شريفة تمدها اموال كثرت في البلاد المتمدنة لا تمكن المجاعات من البشر . والحكومات الاستبدادية لم تعد تطاق . والحروب شبه حروب أتيلاً وجنكيزخان امست في خبر كان . فلا خوف على الامم اليوم اذاً الاَّ منها وفيها . الخطر على حياتها في قلبها . في نفسها . في حكومتها . في الخاسيُّ المائت من علومها ومذاهبها وتقاليدها . في فساد اخلاقها واحكامها وشرائعها

« وجدت الشرعَ تخلقهُ الليالي كما خُلق الرداء الشرعبيُّ »

فالاخلاق السليمة السامية المجيدة انما هي سياج حقوقنا كلها بل هي من اهم اركان الترقي والعمران . انها لنور العدل في الملك . ونور الايمان في الدين . ونور الصدق في العلوم . ونور الحياة الحقة في الامة . ولنا ان نسأل ما هو مصدر هاته الانوار المعنوية وما هي خاصتها وغايتها . وبكلمة اوضح ما هي الاخلاق . وما هي اصولها واسباب رقيها . وما هي عوامل الفساد فيها . وكيف تُصلح اذا فسدت في الامة ساجيب مخلصاً عن كلٍّ من هذه المسائل ثم اقابل بين ما عُرف من اخلاق الغربيين لعلنا نهتدي الى الاخلاق الاسمى فنتخلق بها

١

الخُلق غير الطبع والمزاج . الخلق اطلاقاً ما يظهر من الفكر والنفس . والمزاج ما يظهر من الشعور . وفي القاموس الخُلق الطبع والسجية والمروءة والعادة والدين . فجاء في التحديد بين الطبع والدين ما قد يكون من اهم مظاهر الاخلاق واصولها . ففي الطباع والسجايا شيء من الوراثة التي ليست من بحثي الليلة . واما المروءة مثلاً فخلق في الناس . المروءة مظهر من مظاهر النفس بل صفة راسخة من صفاتها لا يحتاج صاحبها الى اجتهاد او تكلف في اظهارها . وكذلك الشجاعة والكرم والحلم . وكذلك الجبن والبخل والغضب . هذه اخلاق قد تكون خاصيتها معنوية ومادية معاً . قد تكون في كريات الدم وفي الجهاز العصبي وقد تتصل اسبابها بنجوم السماء . ان مزايا النفس السامية التي لا يأتي عليها كيل ولا قياس ليراها الناس فيقدروها انما هي مادية روحية . ومصدر المادة فيها لم يزل غامضاً نوعاً كمصدر الروح . اما المتطرفون من علماء النفس وعلماء المادة فعلى غير هذا الرأي . على انهُ لا ينكر ان مزايا النفس في بعض احوالها كالكهرباء لا تعرف الاَّ بمظاهرها . ففي الخلق العظيم المجيد شيء من طبع البربري واشياء من سجية النبي الالهية . واما الخلق العظيم عند السالكين اي الاعراض عن العالم والاقبال على الله تعالى بالكلية فتلك مسئلة اخرى اجيء بعدئذٍ على ذكرها

ولهذه المزايا النفسية علم هو علم الاخلاق او علم السلوك الف علماؤنا فيهِ مجلدات قلّت فائدتها على كثرتها . وقد تستغربون قولي ان سيئ علم الاخلاق عندنا ما يفسد الاخلاق السامية السامية . كان العرب في صدر الاسلام وفي الجاهلية يقوّمون المعوج في امورهم بحد السيف . كانوا يقولون للظالم المستبد : اما ان تعدل واما ان تعتزل . ويعملون بما يقولون . فجاء بعدئذٍ من علّموا علم الاخلاق بمقتضى الحكمة العملية فقالوا : « ادفع اليهم ما طلبوا من الظلم ولا تنازعهم فيهِ وكف لسانك عن سبهم » و « لا تجعل سلاحك على من تملك الدعاء عليهِ ولكن الثقة بالله » وكثيرة في كتبنا العربية امثال هذه الحكمة العملية التي قلما تراعى الحقيقة فيها . وضعت لتقييد المظلوم وتأييد الظالم . فافسدت اخلاق الاثنين

اما الحكمة الخلقية فبينها و بين الحكمة العملية تفاوت عظيم وفي تراجم النوابغ من رجال التاريخ مثال حي لهذا التفاوت . خذ ايًّا منهم كيوليوس القيصر مثلاً اولوثيروس او كرمول او نپوليون الاول . نوابغ السيف والروح بل الملك والدين . كل خطير النفس رفيع الاهواء بعيد الهمة كانت شرعتهُ الحكمة الفطرية في ما نالهُ من جسيم الامور الى ان صار سيداً في الناس ورباً ملك في العالم . فوارس من فوارس السماء اوقدوا في الناس مشعال الحرية

والحقيقة ملأوا البلاد نوراً ظنوهُ نورهم فرفعوا انفسهم الى مقام الآلهة واتخذوا الحكمة العملية سيفاً لتعزيز شؤونهم وتنفيذ مآربهم. وفي الشرق حتى اليوم ملوك وامراء لا يستحقون ان يكونوا عبيداً لاولئك النوابغ الابطال يرفعون انفسهم الى مقام الالهة ويكلفون الناس التبجير والسجود

« ومن شر البرية رب ملك يريد رعيةً ان تسجدوا له »

الاخلاق قوى كامنة في النفس تؤثر فيها الحوادث والاشياء فتظهر عفواً لغرض اولي هو ارتياح النفس واطمئنانها. ولا يطمح صاحبها بادئ بدء الى معالي المجد او الشهرة او الغنى او السيادة. خذ الغربي في امة فسدت حكومتها. فهو يناهضها في الدرجة الاولى طوعاً لحكم ضميره فتطمئن نفسهُ. ورغبةً باصلاحها ثانياً فتصان حقوقهُ. واذا نتيج عملهُ اصابهُ في الدرجة الثالثة منهُ بعض النفع والفائدة. فيغرهُ اذ ذاك الكسب وتستهويهِ السيادة فيصبح واسفاهُ سياسياً شرعتهُ الحكمة العملية. اما الشرقي في مثل حالهِ فقد يتمثل باقوال الحكماء التي ذكرت شيئاً منها ويستعيذ من الظالم بالله. اذا وقف الغربي عند الدرجة الثانية من عملهِ كان عملهُ شريفاً مجيداً. واذا تعداها كان عملهُ مشوباً مشيناً. وفي كلا الحالين يظل احسن من ان « ندفع اليهم ما طلبوا من الظلم ولا تنازعهم فيهِ ». عظم الهمة والجرأة الادبية ومناهضة الظلم والظالمين اخلاق غربية. والتصون والتقية والاستسلام الى الاقدار اخلاق شرقية

« نشكو الزمان وما اتى بجنايةٍ ولو استطاع تكلما لشكانا »

٢

قلت ان الاخلاق مزايا راسخة في النفس تظهر في مظاهر شتى لغاية اولية هي ارضاء النفس واطمئنانها. كالاستسلام الى الاقدار مثلاً عند الشرقيين. او السعي في مناهضتها عند الغربيين. او الهرب منها عند السوريين. لننظر الآن في اصول الاخلاق وعوامل التربية فيها. اذا اجلنا الطرف في عالم الحيوان رأينا فيهِ امثلة من النحل والصناعة ورقي الحواس فلا نشاهد مثلها في الانسان ولكننا لا نرى فيها عامل الرقي حياً ثابتاً دائماً. فالنحل مثلاً لم يرتقِ في عملهِ منذ مدحهُ سليمان الحكيم — كانهُ مثل الانسان يضربُ بهِ الاطراء — ولا النحل ارتقى في صناعة العسل ولا البلبل في فن الانشاد. ومهما بالغ الانسان في تربيتها تظل الغريزة فيها واحدة وتبقى قواها محدودة. وفي الانسان شيء ادبي روحي ثابت لا تؤثر فيهِ الحوادث

والاشياء . الانسان مدني بالطبع وسيبقى مدنياً . وفيه فطرة خير لا يضعفها نكد الدنيا ولا يزيلها اليؤس والاستعباد . وفيه عاطفة الحب حية ابدية . وفيه نزعة الى المجد والعلى في اكليل اهوائه العالية كلها . وفيه مزية سامية المية تحبب اليه ما هو ثابت دائم ازلي فيعجب من مظاهرها في النمل والنحل والطيور ويأخذه الخشوع والتهيب عند ما يشاهده منها في نظام الكواكب والافلاك . وعندي ان هاته الخاصية البشرية الالهية التي تتساوى اصلاً في الناس البدو منهم والحضر وتتفاوت فرعاً انما هي المصدر الخفي لما ينشأ فينا من الاخلاق فتتباين وتتفاضل عملاً بسنّة الالفة والانفراد . فخلق السالك هو واحد في الهند وفي جبل آتوس لا يتغير . والوفاء في الكلاب لا يظهر الاّ في مرافقتها الانسان . واخلاق البدو من العرب كانوا او من زنوج اميركا هي واحدة . وما يصح في البدوي يصح في القبيلة . وما يقال في الرجل المتمدن يقال في الامم المتمدنة . اي انها لا تتفضل بعضها بعضاً ادباً واخلاقاً ولكنها تختلف في ذلك اختلاف عاداتها وتقاليدها وشرائعها . حرية الافرنسي الجمهوري مثلاً لا تفوق حرية الانكليزي الملكي . وليست اخلاق الانكليز بافضل من اخلاق الفرنسيس . بل الامتان تستويان في الفطرة البشرية السامية كما تتساوى افرادها ولا تختلفان الاّ ظاهراً وعرضاً كما تختلف الطيور في ريشها ولونها وكما تختلف في شكلها اوراق الاشجار — لا يفوتكم ان موضوعي الاخلاق لا الطباع — اما النزعة الشديدة الى العلم . والطموح الى المآثر العالية . والصبو الى استطلاع ما وراء الاشياء الى اكتشاف اسرار الطبيعة ليستخدم ما فيها من القوى الكامنة في سبيل الرقي والعمران — رقي الانسان وعمران البلاد — فهذه كلها من المزايا الراسخة اليوم في روح المدنية الجديدة ولا فضل لامة على اخرى الاّ بما احرزته من جسيم الامور في مضمار الفكر والبحث والعمل وبما اكسبها نوابغها من مجد في سبيل الانسانية ومفخرة . وهذه السجايا الشريفة في الامم انما هي نتيجة الاخلاق السامية في افرادها العاملين . وهي السبب ايضاً في ما قد يكون اسمى منها في ابنائها الآتين

يقال ان الانسان ابن الاحوال اسير الحوادث خاضع لاحكام الزمان مقود بزمام القضاء . وقد يكون الحيوان وما في البشر من الحيوان كذلك . اما الانسان — وفي كل جماعة وكل امة تجده — فهو فوق الاحوال والجموع والحوادث . وهو في الاحايين يتغلب على القضاء . فيكتشف بلاداً جديدة . ويغير خريطة العالم . ويذلل العناصر . ويسوق الى غرضه سنن الاكوان . ويهدم الهياكل ويؤسس الاديان . يزعزع الممالك ويبيدها . ينفخ في الامم

المالئة روح الحياة . الانسان حر في ارادته وعمله وفكره . مهيمن على نفسه . مالك زمام الحوادث التي ترفع به الى ما فوق اصطلاحات الجموع واحكام الناس . ولو لم يكن كذلك لكان اعتقادنا بالله باطلاً . لو لم يكن كذلك لكانت اخلاق البشر كغرائز الحيوان لا يعمل بها ناموس الشوء الحي ولا تؤثر فيها عوامل الارتقاء الثابتة

يقال ان سر السعادة في تكييف اميالنا لتوافق الاحوال التي نحن فيها لا في تكييف الاحوال لتكون لنا سلماً الى تشوقاتنا البعيدة وامالنا العالية . وقد يكون هذا سر النجاح في التجارة وفي السياسة لا سر السعادة . وقد يوافق الصيرفي والاسكاف والبقال . ولكن الانسان المدرك ما فيه من قوى الاكوان الكامنة الناظر الى اليد العلوية التي ترصع الافلاك بالنجوم وتخط فيها الاسرار وتنصب منها للنفس البشرية محجة انوارها لا تطفأ — الانسان الذي لا يعيش ليومه ولنفسه فقط يرى ان عليه ان يسعى ابداً سرمداً في ترويض عقله للفكر وارادته للعمل وشعوره لما رقّ ودق في الحياة . علينا ان نجاهد في سبيل العلم الذي هو اساس ملك الانسان في الدنيا وفي الآخرة

هذه الارض موطىء قدمي الله وموطىء قدمي الانسان . ما فيها ينبغي ان يكون طوع ارادته خاضعاً لفكره عاملاً بمشيئته . البخار والكهربا والاثير درجات في الفكر والاكتشاف تؤدي الى درجات في سماء النفس فوقها . من كان ليحلم في الماضي ان قوة كامنة في الفضاء يتمكن الانسان من تسخيرها لتحمل انباءه من قطر الى قطر . التلغراف اللاسلكي اليوم . والتلفون اللاسلكي غداً . وبعد غد ان شاء الله نخاطب بعضنا بعضاً بواسطة النفس التي هي آلة الفكر الكهربائية . اضغاث احلام . ولكن احلام السلف واوهامهم في اليوم حقائق راهنة

اجل سادتي . ان هذه الارض وهي ذرة في فضاء الاكوان بما فيها من قوات ظاهرة وكامنة وبما فوقها وحولها من العجائب والاسرار انما هي موضوع مساعي الانسان الفكرية والسياسية والاجتماعية والدينية . « ان الوجود لسر مكشوف » كما قال الشاعر الالماني الشهير . ولا يرى منه ويدرك غير ما نستطيع استخدامه والانتفاع به . وما يرى ويدرك لا يذلله غير العقل . ولا يعمل العقل الا حرّاً شجيعاً . ولولا هذه الحرية وهذا الاقبال على العلم في البلاد العامرة الراقية لما اتصلنا الى ربع ما نحن فيه متمتعون من ثمار العلوم والصناعات . وان حب العلم وتشجيع العاملين به لمن ثمار الاخلاق الشريفة السامية

٣

ها قد عدنا الى اصول الاخلاق بعد ان انتقلنا قليلاً الى بعض نتائجها . اجل ان اصول الاخلاق اني هذه النفس الخالدة القلقة السامية المتيقظة التازعة الى استطلاع انباء ما وراء الطبيعة لاصلاح شؤون المجتمع ولرفع شأن الافراد فيهِ والجماعات . والاخلاق في نشوئها ونموها وتنوعها خاضعة مثل مظاهر الكون لعوامل خارجية طبيعية واجتماعية . ولكن طيب شذاها لا يتغير على تنوع عوامل الرقي فيها . غصن ورد تزرع نصفهُ في تربة حارة في اقليم حار ونصفهُ الاخر في تربة باردة في اقليم بارد فلا يتغير في وردها غير الحجم واللون . اما شذا الوردتين بل نفسهما بل خلقها فهو واحد في الحالين . هذا في النبات . وفي السياسة اذا تغيرت الاحوال لتغير مبادئ السياسيين واما فضائل النفس فهي واحدة في كل مكان وزمان . والنفس الكبيرة السامية لا تعمل فيها الحوادث ولا تفقدها الاحوال فضيلة واحدة من فضائلها . على ان مسلكها قد يتغير في الناس ويتنوع فتكسبهُ الاحوال شيئاً من روحها وطبيعتها . قال ابن خلدون « الانسان ابن عاداتهِ ومألوفهِ لا ابن طبيعتهِ ومزاجهِ » والاصح انهُ ابن الاثنين

من الباحثين في طبائع البشر والعمران الناس يقولون ان عوامل الهواء والشمس تغير في جوهرها تغييراً بيناً . ومن هؤلاء العلماء منتسكيو وابن خلدون . اما ظاهر تأثير الهواء والشمس في الاجسام كما نشاهدهُ مثلاً في الوان البشر وريش الطيور . رأيت في احد متاحف لندرا نوعاً من الطير من فصيلة واحدة بعضهُ من اقليم بارد وبعضهُ من اقليم حار ولا يختلف في سوى لون الريش في الطيرين . اما تأثير الاقليم في الاخلاق البشرية ففيهِ نظر . يقول منتسكيو ان الجبن خُلق في سكان البلاد الحارة وان الشجاعة من اخلاق سكان البلاد الباردة . ولكن الرومانيين قديماً (سكان ايطاليا الحارة) غلبوا الكلتيين (سكان بريطانيا الباردة) فتأملوا . وعندنا في العرب شاهد آخر . كان عرب البادية احسن خلقاً وارق نفساً من اهل البلدان المتمدنة التي احتلوها وسادوها ناهيك بشدة بأسهم وشجاعتهم . فاذا كان صحيحاً ما يقول ابن خلدون ومنتسكيو ان الحر يذهب بالبأس والمنعة وهما من الاخلاق المجيدة في الناس لِمَ لَمْ يؤثر قديماً في الرومانيين ولِمَ لَمْ يؤثر في العرب ؟ أوليست شجاعة الامم المعنوية الروحية فوق شجاعتها المادية ؟ قد فات ابن خلدون هذا . وما قولنا في الحبش وهم جيران العرب يسكنون في منطقة واحدة ولا يفصل بين الامتين غير البحر فاين منهم بأس العرب ومنعتهم ؟ واين آدابهم واين شعرهم ؟ فهل تُشفي الشمسُ قوماً

وتسعد قوماً ؟ وهل كان الاقليم محابياً في امة مخاملاً في اخرى ؟ وهاكم مثالاً آخر من بحث ابن خلدون في تأثير الاقاليم في الاخلاق وصف السودانيين باللغة والطيش وشدة الطرب ونسب ذلك كما فعل منتسكيو بعده الى هواء بلادهم وشمس الاقليم الحارة . وقد كتب تيتوس المؤرخ الروماني فصلاً في الشعوب الالمانية القديمة الذين استوطنوا البلاد الشمالية الباردة فوق نهر الدانوب فوصفهم كما وصف ابن خلدون السودانيين بالميل الشديد الى اللهو والطرب فقال « انهم في ايام السلم لفي هرج ومرج دائماً فائمون » ولم ينسب المؤرخ الروماني ميلهم هذا الى العوامل الطبيعية . اخلاق القبائل في امور كثيرة هي واحدة كما قلت ولا تختلف باختلاف الاقليم كما يظهر مما تقدم . اما اذا كانت طبيعة الفرح والسرور انتشار الروح الحيواني كما يقول ابن خلدون وطبيعة الحزن انقباضهُ وتكاثفهُ فتكون الحرارة سبب الاولى ويكون البرد سبب الثانية . ولكن هذا نظر سطحي . فالالمانيون القدماء كانت تغلب فيهم كما قال المؤرخ الروماني طبيعة الفرح والسرور واهل اوربا الشمالية اليوم وهم من سليلة اولئك الاقوام تغلب فيهم طبيعة الحزن والكآبة . وهواء تلك الاصقاع اليوم هواؤها منذ الفي سنة واقليمها واحد لم تتغير فيهِ شمسهُ وسماؤهُ . فما السبب في تغير طباعهم يا ترى ؟

لم اكن لاستوقفكم عند هذا البحث لو لم تكن قد أتهمت سماؤنا نحن السوريين بخمود طباعنا . فقال الاورو بيون ان لطيف هوائنا وجميل جونا لما يدعو الى الخمود والخمول . ومعاذ الله ان تكون هذه السماء الجميلة سماؤنا امّ هاته الآفات في ابنائها . وانما هنالك عوامل اخرى مدنية ودينية وادبية غير عوامل الشمس والهواء والبرد والحر

الاخلاق كما قلت مزايا راسخة في النفس تعمل في اظهارها الاحوال الاجتماعية في الدرجة الاولى . ومن هذه العوامل الاجتماعية العادات والتقاليد والشرائع والاديان . فهي تعمل في اصلاح الاخلاق كما تعمل في افسادها

وهاكم مثالاً من ترهات امة شرقية مما لم نزل نحن في بعضها . كان للتتر ايام جنكيزخان قوانين واحكام سخيفة يراعونها و ينزلونها منزلة الشرائع الالهية . ومن اغربها ان من يرمي مكيناً في الدار يُعد مجرماً فصاصهُ الشنق وكذلك من نام على سوط او ضرب حصاناً برسنه او كسر عظماً على عظم آخر — ولكنهم وان احترموا مثل هاته الترهات من الاحكام لم يروا في نكث العهد عيباً ولا في السرقة والنهب والقتل ذنباً . فالاحكام السخيفة والشرائع الباطلة

الامير روريك

القيصر ايفان الرابع الرهيب

افسدت اخلاقهم فاصبحوا لا يعرفون من الخير والشر غير ما اجازهُ الحاكم او ابطلهُ . والشرائع الباطلة في امة لا تعرف غير اميرها سيداً تذهب بحرمة النواميس الطبيعية والالهية . تاهيك عمَّا لها من التأثير الخبيث في روابط الالفة وفي الجامعة الوطنية

« ان الشرائع القت بيننا إحناً واودعتنا افانين المداوات »

ليس الذنب اذاً ذنب سجايانا وهوائنا . بل هي الشرائع كما قال المعري ولم تزل كما كانت في ايامهِ تعيث بالعقول وتفسد في الاخلاق

« كم وعظ الواعظون منا وقام في الناس انبياء »
« فانصرفوا والبلاء باقٍ ولم يزُل داؤك العياء »

٤

اما عوامل التربية في الاخلاق فعديدة اذكر اهمها واذا حصرت النظر في اوربا فلأن مدنيتها خلاصة مدنيات العالم جمعاء . في الاعصر الخالية عند سقوط الدولة الرومانية كان الدين المسيحي العامل الوحيد في تلطيف اخلاق البرابرة هناك . ولكن الفساد الذي اعترى ادعياءهُ بعد ذاك تفشى في البلاد وعم شعوبها فخيمت عليهم ظلمات امرها في التاريخ مشهور . وكلنا نعلم ما كانت فيهِ تلك الامم من الجهل والخرافة والخمول يوم اشعل العرب مشاعل العلوم في بغداد فاتصل نورهُ بالاندلس وشع بينهُ اشعة في صوامع الرهبان في اوربا . فالرهبان اول من اشتغلوا في احياء العلوم في بلاد لم يكن يسمع فيها غير قرع الرماح وصليل السيوف . والحروب الصليبية فضل في تدميث اخلاق الاوربيين وتلطيف اذواقهم . ونظام الاقطاعات الذي لا يرى فيهِ بعض المؤرخين غير الجور والسف والاستبداد ربَّى في العامة اخلاقاً شريفة اهمها الوفاء والصدق واسس في الاسر الاوربية سيادة المرأة . والنهضة الاصلاحية الدينية حررت نفس الانسان من قيود السلطة المطلقة . والثورة الانكليزية الاولى اعطتهُ حجة بحقوقهِ . والثورة الافرنسية الشهيرة منحتهُ بها وعملتهُ التوَّدة والاعتدال . وهناك عوامل اخرى عديدة كاكتشاف اميركا واختراع الطباعة واحياء الفنون والصناعات مما هو من نتاج العقل الذي يجلو مظاهر الاخلاق ويشحذها

ولا يفوتنا ان نذكر بعض الفلسفات الاوروبية وفضلها في تهذيب الاخلاق كالفلسفة الاستقرائية التي احياها ديكرت في فرنسا و[illegible] انكلترا فلقنت الاوربي حكمة الريب

وعودتهُ ان يسأل « كيف ولماذا » في كل عقيدة ومذهب وتعليم . وحببت اليهِ البحث العلمي والتمحيص . ثم الفلسفة الكمالية الالمانية التي غذت عقلهُ ونفسهُ . ثم الفلسفة الانكليزية العملية التي غذت جسدهُ فاشتد ساعدهُ وصحت عزيمتهُ . وفي هاته الفلسفات كلها ترى ان المقام الاول في العمل انما هو للارادة . فالارادة اذا ضعفت في المرء ضعفت فيهِ فضائل النفس والعقل والجسد كلها . والارادة مثل كل الجوارح فينا ينميها الترويض وتعززها الممارسة . وهل تظنني مغبوناً اذا حرمت نفسي قليلاً مما اعتدتهُ من اساليب الراحة والرفاه او عملت عملاً صغيراً استثقلهُ متعمداً في ذلك لا إماتة نفسي بل ترويض ارادتي للعمل ؟ فاذا مرَّ عليَّ سنة وانا كل يوم اعزم عزماً معها كان صغيراً وانجز العمل بهِ استطيع ان اقول مع الفيلسوف كنت « عليَّ ان افعل اذن لي ان افعل » اذ ما الفائدة من هذه الافكار الجميلة افكارنا ومن هذه الخيالات السامية ومن هذه الاخلاق الفاضلة الجيدة اذا كنا لا نروّض انفسنا لها ونعمل بها عازمين حازمين لينتفع بها الناس وليتنفع بها الوطن

ولا انكر ان الضرورة في الاحايين تغير من اخلاق الناس فتحسنها او تفسدها . ضاقت مدينة اثينة على سكانها ايام مجدها . والارض المجاورة لم تكن خصبة فقلت المواشي وعزت فاغفل الناس الاضحية . فافتى الحكماء . ان هدية تهدى الى الآلهة خير من ثور يذبح لها . فاتخذ الاثينيون الفتوى سنة لانهم كانوا اشد من الآلهة حاجة الى اللحم . وكان هذا سبب اعتدالهم وحكمتهم . حتى ان الناس بعدئذٍ وقد نسوا او جهلوا الاسباب قالوا ان الاثيني ارقى في خلقهِ الديني من سواه . ومثل هذا في التاريخ امثلة عديدة لامور صغرت اسبابها وكبرت نتائجها

اما عوامل الرقي الفلسفية والفنية التي ذكرتها فقد لا تلزم لتهذيب الاخلاق في القبائل البدوية وقد تحرم منها امة وتكون اخلاقها سليمة كامة العرب في صدر الاسلام . ولكن الملك اذا اتسع وتعددت فيهِ المساعي والنزعات قام في ظلهِ من مظاهر الابهة والجلال والنفوذ والاقتدار ما لا تسلم عواقبهُ و يسلم الملك منها اذا حرم عوامل الرقي الخلقية والعلمية والفلسفية والفنية . ولنا على ذلك شاهد من الدول الشرقية الماضية ومن الدولة العثمانية اليوم . ولكن بحثنا الليلة في الاخلاق لا في السياسة ستأتي البقية

امين الريحاني